وتاب القلب

رشا مصطفى / مصر

لدي الآن ثلاث دبل[3]، لا يُفارقنّ جيب بنطالي الأزرق المهترئ،إحداهما كانت لـــــــــــ "حنان" زميلتي بالدراسة والثانية كانت لـــــــ "سميحة" جارتي التي طالما تغزلت بها أمي ومدحت لي طيب أصلها، أما الأخيرة فكانت لـ "فاطمة" ابنة عمي وحبيبتي منذ الطفولة، كم كانت تحبني تلك الفاطمة! وكم تعاهدنا أن نبقى سوياً مهما عصفت بنا أعاصير الحياة!

تعاهدنا أن نبني بيتنا معاً طوبة من الحب وطوبة من الصـــبر والكفاح، حقيقة لســـت حانقاً عليها ولســـت غاضباً منها، فالذنب ذنبي، وهكذا خُلقت!

أتذكر جيداً ذلك اليوم، منذ سبع سنوات، عندما ذهبت لزيارتها في منزلهم، حاملاً معي طبقاً من الحلويات وكيســـاً من الفاكهة كَقُربان مني علّها تغفر خطيئتي،عندما تعالت نبرة صـــوتي عليها في لقائنا الأخير وصرخت بوجهها قائلاً :

ـ أنتِ لا تفكرين إلا بنفسك، ماذا تريدينني أن أفعل أكثر ممّا فعلته؟

فتحت لي أمها الباب مُرحبة بجملتها المعتادة:

ـ تفضل، يابني أنت لست غريباً.

ناولتها ما بيدي وجلست، فجاءت فاطمة تمشي على إستحياء لتضع أمامي صندوقاً كبيراً، يحوي بداخله شيئاً ثميناً، علّه هدية الفلانتين التي يحتفل بها العُشاق والمُحبين في مثل هذا اليوم من كل عام.

أطلقت لخيالي العنان أفكر في نوع الهدية التي قد تُجلبها لي فاطمة في مثل هذا اليوم، أهي تلك البذلة الجميلة التي أعجبتني بأحد المحال التجارية عندما كنا نتنزه سـوياً؟ أم سـاعة أنيقة بدلاً من سـاعتي التي تأبى عقاربها أن تعترف بحركة الزمن فتتوقف أكثر ممّا تدور؟ لكن حجم الصـــندوق يبدو أكبر من ذلك، أكبر من أن يحوي بداخله أشياء صغيرة كهذي! لم يطل تفكيري كثيراً، فسرعان ما تحول ظني إلى واقعاً بشـــعاً عندما فتحته، لأجد بداخله كل ما يمت لي بصـــلة، دباديبٌ حمراء، وهاتفاً خلوياً أكل عليه الزمن وشرب، وعلبة صغيرة فارغة سوى من دبلة صفراء نُقش عليها اسم تعزف حروفه سيمفونية الخراب الذي حل بيننا.

ظللت مُتسـمراً بمكاني، عجزت كل حبالي الصـوتية عن عزف جملة مفيدة أو غير مفيدة، لم أنبس ببنت شفة.

تصـــدع عقلي بوابل من الأفكار المتســـاقطة، كدموع عذراء توفي زوجها قبل عقد القران بقليل، فقط علامات الدهشة بادية على محياي، تنذر بقدوم عاصفة عصيبة ليكون ضحيتها ذلك الصندوق الذي بات

[3] [3] جمع دُبلة وهي حلقة معدنية من غير فص تُوضع في الإصبع، تكون من الذهب أو الفضة ونحوهما:- دُبلة الخطوبة/الزواج

رُفات تحت أقدامي، هشـــمته بما يحويه من ذكريات وخرجت هائماً على وجهي، لســـت أدري إلي أين أسير؟!

ثلاثتهنّ تَركنَني لنفس السـبب لتبقى ذكراهم في جيب بنطالي تذكرني بما مضـــى، ولكن ماذا عســاي أن أفعل؟

حاولت جاهداً الخروج بحثاً عن عمل يليق بي وبشـــهادتي العلمية فلم أفلح، أرتضـــيت بالهم الذي أبى أن يرضـى بي، وعملت تحت أشـعة الشـمس الحارقة كعامل أجرة في الأراضـي الزراعية، كأي عامل آخر من أولئك الذين لم يحظى أحداً منهم بفرصـة للتعليم، عملت مسـاعداً لخياط، وصـبياً في ورشـة ونادلاً في مقهى ولكن هيهات.. هيهات لتلك الدراهم المعدودة أن تبني بيتاً ولو كانت جدرانه من الطوب اللبن!

هيهات أن تفتح بيتاً، وتعول أسرة، كانت فاطمة على حق، عندما أخبرتني أنني شخص لا أصلح للزواج، لست حانقاً عليها ولست غاضباً منها بل إلتمست لها سبعين عُذراً.

عدت لمنزلي ودلفت مُسرعاً نحو غرفتي متجنباً الحديث مع أحد بالمنزل وبالتحديد أمي، يكفيها ما تُقاسيه من متاعب لأجلي وأجل إخوتي، جلسـت على السـرير ليقع بصـري على تلك الشـهادة المثبتة على جدار الغرفة، كتمثال عتيق غطى الغبار المتطاير معالمه الأثرية، أومأت برأسـي سـائلاً نفسـي: ما العمل الآن؟ أهذه هي نهايتي؟ علامَ إذن كانوا يخبروننا أن من يطلب العلا يســـهر الليالي؟ فها قد ســـهرنا وتعبنا واجتهدنا فما بلغنا علا ولا علياء!!

قضيت ليلتي طويلة قاسية ولكني لم أبخل على نفسي بجرعة أمل حتى وإن كانت زائفة، لم أشأ أن أكون من أولئك الضعاف الذين يتعسرون بتلك السهولة

وفي الصـباح توجهت لمنزل فاطمة، أحاول أن أرمم ما تبقى بيننا وفي طريقي إليها، لم أتمالك نفسـي من إطلاق ضـــحكة مُدوية أمتزجت بدموعي الهاطلة عندما اخترق ســمعي صـــوت زغاريد آتياً من شـــقتها مهرولاً ليخبرني أن أعود أدراجي فقد خُطبت لابن خـالتهـا، محروس الذي عـاد إلى أرض الوطن بعد رحلـة غيـاب طويلـة في بلـدان الخليج ونواحيـه، رحلـة ربمـا تجـاوز طولهـا رحلـة ذاك الكريســـتوفر كولومبوس الذي أكتشـف لنا العالم الجديد، ولكنه على الأقل أكتشـف شـيئًا للبشـرية أما محروس فعاد لنا كهلاً يقف على أعتاب الخمسين آملاً أن يبدأ في وطنه حياة جديدة وأن يبني عش الزوجية المُفعم بالرحمة والمودة.